سلطة الآباء

للأستاذ أحمد أمين

رحم الله زماناً كان الأب فى بيته الآمر الناهى ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ؛ ينادى فيتسابق من فى البيت إلى ندائه ، ويشير فاشارته أمر ، وطاعته غنم ؛ تحدثه الزوجة فى خفر وحياء ، ويحدثه الابن فى اكبار واجلال ؛ من سوء الأدب أن يرفع اليه بصره ، أو يرد عليه قوله ، أو يراجعه فى رأى ، أو يجادله فى أمر . أما البنت ، فاذا حدثها لف الحياء رأسها ، وغض الخجل طرفها ؛ قليلة الكلام ، متحفظة الضحك ، خافضة الصوت ؛ تتوهم أنها أخطأت فى التافه من الأمر فيندى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها ، وتنكس بصرها ؛ واذا جاء حديث الزوج والزواج قالى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ؛ والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض ، وفيما يحدث وما لا يحدث

فى جملة الأمر أن البيت ينقسم إلى قسمين : حاكم وهو الأب ، ومحكوم عليه وهو سائر الأسرة ؛ منه الأمر ومنهم الطاعة ، له السيادة ولهم الخضوع ، يرسم الخطط وهم ينفذونها ، يجلب الرزق ويتولى الانفاق وهم يسيرون على ما رسم ؛ وويل لمن تبرم أو عارض ! فان أحس الابن حاجة ملحة إلى مال ، أوشعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ؛ إنما يحاور ويداور ، ويلمح ويرمز ؛ فان أعياه الأمر وسّط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح

وبجانب سلطة الأب الدنيوية كانت سلطته الدينية . فهو يوقظهم قبل الشمس ليصلوا الصبح أداء لا قضاء ، ويسائلهم فى أكثر الأوقات عن صلاتهم كيف صلوا ، وعن وضوئهم كيف توضأوا ؛ يعلم الجاهل ويؤم المتعلم ، ويجمعهم حوله من آن لآن يصلى بهم ، ويذكرهم ويعظهم ، ويقص عليهم قصص الأنبياء ، وحكايات الأولياء والصلحاء — وإن أنس لا أنس جمال المواسم الدينية — كيوم نصف شعبان ، إذ تشعر فى البيت من الصباح بحركة غير عادية : هذا ينظف ، وهذه تعد الأكل الحافل ، ويتهيأ الجميع قبل الغروب استعدادا لصلاة المغرب ، قد لبس النساء البياض ، وتقنعن بالشاش الأبيض ، وإذا رب البيت يؤم جميع من فى البيت ، ثم يخرج دعاء نصف شعبان من جيبه ويتلوه عليهم ، يقول جملة فيرددونها ، ويبتهل معهم إلى الله أن يسعده ويسعدهم ، ويصلحه ويصلحهم ، ويبارك له فى ماله وفى نفسه وفى ذريته ، ثم يأخذون حظهم لبطونهم ، كما أخذوا حظهم لأرواحهم ، وشملتهم السعادة وعمهم اللطف والهناءة

* * *

لقد ودعنا ذاك الزمان بخيره وشره ، وحلوه ومره ، واستقبلنا زماناً صار فيه الأبناء آباء ، وأرادوا أن تكون لهم السلطة كآبائهم فأبى عليهم الزمان

قالت الزوجة لزوجها : الناس أحرار ، وأنا انسان وأنت انسان ، فان اعتززت بالكسب اعتززت أنا بالانفاق ، وان اعتززت بالرجولة اعتززت بالأنوثة ، وان اعتززت بأى شىء فأنا اعتز بمثله وبخير منه ؛ فأنا وأنت شريكان ، لا سيد وأمة ، ولا مالك ومملوك ؛ لى كل الحقوق التى لك ، وقد يكون علىّ بعض الواجبات التى عليك ، فان سفرتَ سفرتُ ، وإن غشيت دور الملاهى غشيتها ؛ عليك أن تحصل المال وعلىّ الانفاق ، ولك السلطان التام فى اختيار طرق التحصيل ، ولى الخيار التام فى وجوه التبديد . أنت للبيت والبيت لى . إن كان لك أم فقد شبَعتْ سلطة فى الماضى أيام كانت زوجة ، فلا حق لها أن تنعم بسلطانها وسلطان غيرها ، فليس لها الحق إلا أن تأكل ، كما ليس لك الحق فى حبها ؛ فالحب كله للزوجة ، إنما لك أن ترحمها ؛ والدين لا شأن لك فيه بتاتاً فهو علاقة بين العبد وربه ، وكل انسان حر أن يحدد هذه العلاقة كما يوحى إليه قلبه ؛ فان شئت أنت أن تتدين فتدين ، على شرط ألا تقلب نظام البيت ، وتقلق راحتى وراحة الخدم ، بأعداد ماء ساخن فى الشتاء وما إلى ذلك

ورأى الزوج أن الأحكام قاسية ، والشروط قادحة ، وهام

يبحث بين المتمدنات عمن يرضى به زوجاً على الشروط القديمة فأعياه البحث

وأخيراً نزل على حكم القضاء ، وأسلم نفسه لسلطان الزمان وقدّم الطاعة للزوجة ، بعد أن كانت هي تقدم الطاعة له ؛ ولا يزال في دار الآثار في المحاكم الشرعية قضايا اسمها قضايا الطاعة ، يحكم فيها للأزواج على الزوجات ؛ حفظ شكلها ، وبطل روحها ؛ ولو كانت المحاكم محاكم عصرية لحكمت بالطاعة على الزوج لزوجته ، وحكمت بالنفقة على الزوجة لزوجها

وتم الزواج ، وفرحت الزوجة بالظفر فغالت في المطالب ، وابتدعت كل يوم مطلباً جديداً ، وأرادت أن تنتقم لأمهاتها من آبائه في شخصه ، فطالما أطعمن ، وطالما خضعن ! فليطع هو دائماً وليخضع دائماً ، جزاء وفاقاً على ما جنى آباؤه وأجداده

قالت : إن رقصتَ رقصتُ ، فذلك حقك وحقي ؛ قال نعم . قالت بل إن لم ترقص رقصت لأنك ان أضعت حقك لم أضع حقي ؛ وان خالتَ خالتُ ، فالجزاء من جنس العمل ، بل إن لم تخالل ربما خالالت ، لأن حياة الزوجية البحت قد يعتريها الركود والسأم والملل . فصرخ ولف الغضب وجهه ، وحاول أن ينكل بها فتراجعت ، وسحبت مطلبها الأخير ورأت الحكمة أن تتريث بعض الشيء حتى يبلع ريقه من أثر الصدمة الأولى ، ويستعد للصدمة الثانية ، فان لم يسعفها الزمان أوصت بناتها بشروطها الجديدة

قالت وسيكون من أول ما أوصي به ابنتي أن تتخذ قياس خطيبها ، ثم يكون من أول جهازها أن تفصل له بزة ولجاماً على قدره ، فتضع البزة عليه وتركبه إذا شاءت ، وتشكمه باللجام إذا حاول أن يتحرك يميناً أو شمالاً على غير رغبتها

* * *

وشاء الله أن يرزقا بنين وبنات

وقد رأوا أن الأم لا تجل الأب فلم يجلوه ، ولم تمره كبير التفات فلم يعيروه ؛ ورأوها تبذر في مال الأب فبذروا ، ورأوها حرة التصرف فتحرروا ، ورأوها تخرج من البيت من غير إذن الأب فخرجوا خروجها ، وتعود متى شاءت ففعلوا فعلها ، ورأوها لا تتدين فلم يتدينوا ؛ ورأوها تطالب الأب ألا يفتح رسائلها فطالبوا ، ورأوها تتكلم في المسائل الدقيقة أمام أبنائها وبناتها في صراحة فتفتحت شهواتهم ، وتحركت رغباتهم ، وغذتها تخيلاتهم

وقال الأبناء لأبيهم : إنا مخلوقون لزمان غير زمانك فاخضع لحكم الزمان ؛ وقد نشأنا في زمن حرية في الآراء ، وحرية في الأعمال ، وحرية في التصرف ، لا كما نشأتَ في جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد ، فمحال أن يسع ثيابك الضيق أبداننا ، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا ، فان حاولت ذلك فانما تحاول ادخال الثور في قارورة ، أو لفّ القصر الكبير بمنديل صغير ! قال نعم . قالوا وأنت الذي سمح لنا بادئ ذي بدء أن نغشى دور السينما والتمثيل ، وأن نسمع الأغاني البلدية ، ونشاهد الراقص الأوربية ، فاذا أقررت المقدمة فلا تهرب من النتيجة . وأنت الذي عودنا ألا نضع للبيت « ميزانية » ، فأنت تعطي «ماهيتك» لأمنا تنفق من غير حساب ، فان انتهت في نصف الشهر طلبت منك أن تقترض فاقترضت ، وأن تشتري ما لا حاجة لنا به فاشتريت ، وأن تقدم الكمالي على الضروري فأطعت ؛ فليس لك أن تطالبنا بالاقتصاد في الجدول الصغير ، والنهرُ الكبير ليس له ضابط . وخُرقٌ أن تحاول أن تضع ميزانية لمصاحة ، وميزانيةُ الدولة مبعثرة ! قال نعم . قالوا وقد أضعت سيادتك على أمنا فلمَ تفرض سيادتك علينا ؟ ورضيت بالخضوع لها فلمَ تأباه علينا ، وهي أم الحاضر وأنت أبو الماضي ونحن رجال المستقبل ؟ قال نعم . قالوا وأنت نشأت في زمن خضوع تام : خضعت لأبيك في المهد صبيا ، وخضعت للفقيه في الكتب ، والمدرس في المدرسة ؛ فاذا قلت برأسك هكذا ، قال الأستاذ بعصاه هكذا ، فنكست رأسك ، وغضضت بصرك ، وأسعفتك عينك بالبكاء ، ولم يسعفك لسانك بالقول ؛ فلما صرت « موظفاً » وقفت من رئيسك موقفك من أبيك وأستاذك ، تنفذ دائماً وتطيع دائماً — ولم يجر على ذهنك يوماً تفكير في استقلال ، ولا على لسانك نداء بحرية ؛ أما نحن فربتنا في بيتنا : حررتنا على أساتذتنا ، فحملتك كرهاً على تملقنا ؛ وناديتنا بالحرية فتهمتمونا في شيء من الرياء ،

تظهرون الطاعة لرؤسائكم وتبطنون الرضا عن حركاتنا ، وتريدون أن تجمعوا بين الحرص على ماهيتكم والحرص على وطنيتكم المكبوتة . قال نعم . قالوا : فلما قدناك وقدنا رجالنا فى السياسة فلنقدكم جميعاً فى كل شيء : فى البيت وفى المال وفى العلم وفى رسم الخطط : ولنقلب الوضع فنكون قادة وتكونوا جنوداً وإلا لم نرض عنكم جنوداً ولا قادة

وقالت البنات لأبيهن :

يا أبانا الذى ليس فى السماء ! رقصت أمنا فرقصنا ، وشربت أمنا فشربنا ، وشربت سراً فلتسمح لنا بحكم تقدم الزمان أن نشرب جهراً ، ورأينا فى روايات السينما والتمثيل حبا فأحببنا ، ورأينا عريا على الشواطئ فتعرينا ، وتزوجت أمنا باذن أبيها فلنتزوج نحن باذننا . قال نعم . قلن وقد أوصتنا أمنا أن نركب الزوج ، ولكننا أمام مشكلة يشغلنا حلها . فانا نرى شبان اليوم — كاخوتنا — متمردين لا يخضعون خضوعك ولا يستسلمون استسلامك ، فارادتهم قوية كارادتنا ، وهم يحبون السلطة حبنا ؛ فهم أحرار ونحن أحرار ، وهم مستبدون ونحن مستبدات ، فكيف نتفق ؟ هل يمكن أن يبقى البيت بعدة استبدادات ؟ ولكن لا بأس يا أبانا ! هل البيت ضرورة من ضرورات الحياة ؟ أوليس نظام الأسرة نظاما عتيقاً من آثار القرون الوسطى ؟ قال نعم . قلن على كل حال فيصح أن يجرب جيل النساء الجديد مع جيل الرجال الجديد ، فان وقع ما خشينا عشنا أحرارا وعاشوا أحرارا ، وطالبنا بتسهيل الطلاق وبهدم المحاكم الشرعية على رؤوس أصحابها ، وتعاقدنا تعاقدا مدنياً . قال الأب : وماذا تفعلن بما ترزقن من أبناء وبنات ؟ قلن لك الله يا أبانا ! إنك لا تزال تفكر بعقل جدنا وجدتنا ! لقد كنت أنت وأبوك وجدك تحملون أنفسكم عناء كبيرا فى التفكير فى الأولاد ، وتضحون بأنفسكم وأموالكم فى سبيلهم ، وتعيشون لهم لا لكم . أما عقليتنا نحن أهل الجيل الحاضر فأن نعيش لأنفسنا لا لغيرنا . لقد ضحك عليكم الدين والأخلاق ففهمتم أن الواجب كل شيء ، وكشفنا اللعبة ففهمنا أن اللذة كل شيء ، فنحن نمنع النسل ، فاذا جاء قسرا فليعش كما يشاء القدر ؛ ولنقدم حظنا على حظه ، وسعادتنا على سعادته ، ولا نفكر فيه طويلا ، ولا يتدخل فى شؤوننا كثيراً ولا قليلا

قال الأب : وأمر المال كيف يدبر ؟ كيف تعشن أنتن وأولادكن إذا كان طلاق وكان فراق ؟ قلن هذا ظل آخر ظريف من ظلال تفكيرك ، دع هذا يا أبانا والبركة أخيراً فيك

* * *

أما بعد فقد خلا الأب يوماً الى نفسه ، وأجال النظر فى يومه وأمسه ، فبكى على أطلال سلطته الدارة ، وعزته الزائلة ، ورأى أنهم خدعوه بنظرياتهم الحديثة ، وتعاليمهم الجديدة — قال : لقد قالوا إن زمان الاستبداد قد فات ومات ، فلا استبداد فى الحكومة ، ولا استبداد فى المدرسة ، فيجب ألا يكون استبداد فى البيت ؛ إنما هنالك ديمقراطية فى كل شيء ، فيجب أن يكون البيت برلمانا صغيراً يسمع فيه الأب رأى ابنه ورأى بنته ورأى زوجه ، وتؤخذ الأصوات بالأغلبية فى العمل وفى المال وفى كل شيء ؛ وقالوا تنازل عن سلطتك طوعاً ، وإلا تنازلت عنها كرها ، وقالوا إن هذا أسعد للبيت ، وأبعث للراحة والطمأنينة ، وقالوا إن هذا يخفف العبء عنك ، فنحن نقسم البيت إلى مناطق نفوذ ، فمنطقة نفوذ للمرأة ، وأخرى للرجل ، وثالثة للأولاد ، وكلهم يتعاونون فى الرأى ويتبادلون المشورة . سمعت وأطعت فماذا رأيت ؟ رأيت كل انسان فى البيت له منطقة نفوذ إلا إياى ، ولم أر البيت برلمانا ، بل رأيته حماما بلا ماء ، وسوقا بلا نظام ، إن حصلت على مال أرادته المرأة فستانا ، وأرادته البنت بيانو ، وأراده الابن سيارة ؛ ولا تسل عما يحدث بعد ذلك من نزاع وخصام . وإن أردنا راحة فى الصيف أردت رأس البر لأستريح ، وأرادت الأم والبنت الاسكندرية قريبا من ستانلى باى ، وأراد الابن أوربا ؛ وإن ، وإن ، إلى ما لا يحصى ، ولا يمكن أن يستقصى ؛ وأخيراً يتفقون على كل شيء إلا على رأيى . فوالله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما تزوجت ، فان كان ولابد ففلاحة صعيدية ، لم تسمع يوما بمدنية ، ولم تركب يوما قطارا الى القاهرة والاسكندرية ، لها يد صناع فى عمل « الأقراص » ، ورأس صناع فى حمل « البلاص »

أيتها الزوجة ! ويا أيها الأبناء والبنات ! ارحموا عزيز قوم ذل !

أحمد أمين